مجلة أنساق للفنون والآداب والعلوم
الإنسانية
الإصدار الخامس عشر
المجلد (٥) العدد (٢)
٢٠٢٤ (١-١١)

الثّقافةُ الشّعبيّةُ ودورُها في بناءِ الحدثِ السّرديّ في الرّواية العربيّة، خارج نطاق التّغطية أنموذجًا

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

د.وفا نسيب المهتار

دكتوراه في اللّغة العربيّة وآدابها، لبنان، الجامعة الإسلاميّة لبنان.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١٩ مايو ٢٠٢٤م

الملخّص

سعت هذه الدّراسة إلى تتبّع مقوّمات العمل الرّوائيّ الفنيّة المُصنّف في خانة الأدب الرّسميّ الموجّه إلى اليافعين، ودراسة عناصره الإبداعيّة الّتي تقرّبه من حدود الأدب الشّعبيّ وحكاياته، من خلال حضور مفهوم الثّقافة الشّعبيّة الجماعيّة في الأعمال الرّوائيّة الموجّهة إلى النّاشئة بتأطير المادة العلميّة، وحصرها في رواية "خارج نطاق التّغطية" كمدوّنة للبحث، لما تختزله من قيم عربيّة، وعادات في تصوير صراع الأجيال؛ وهي الرّواية الّتي توجّه بها كاتبها "سمير كتاني" إلى الأطفال، وتحديدًا فئة المراهقين ممن يعيشون مفاهيم التّخبط الاجتماعي داخل البيت، لعدم تفهم الأبوين لاحتياجاتهم النّفسيّة والعاطفيّة قبل الماديّة، بهدف تقديم النّصيحة إلى الجيلين معًا. ولبلوغ الأهداف البحثيّة المتمثّلة في معرفة مدى تأثير الأدب الشّعبي وثقافة المجتمع المتوارثة في أدبنا الرّسمي، في قيم التّربيّة والسّلوك الاجتماعيّ المرتبطة بالمفاهيم الثّقافيّة الخاصّة بالمجتمع العربيّ في رواية "خارج نطاق التّغطية"، استعانت الدّراسة بعلم اجتماع الأدب، وبالمنهج السّيميائيّ التّأويليّ في تتبع الرّموز اللّغوية المتعلّقة بالأحداث السّردية لربطها بمدلولات ثقافيّة شعبيّة، تشكّل إرثنا الثّقافي في مجتمعاتنا العربيّة. لتنتهي الدّراسة إلى أنّ العمل الرّوائيّ الّذي يجد فيه كلّ فرد ذاته، يصبح أدبًا شعبيًّا وإن عُرف مؤلّفه، لأنّ الغاية من إنتاجه كانت إفادة الجماعة، وليس فقط التّعبير عن إبداع ذاتيّ.

الكلمات المُفتاحيّة: الثّقافة الشّعبيّة، الرّواية، العادات المتوارثة، الواقعيّة، المقوّمات الفنيّة.

Abstract

This study aims to elucidate the artistic elements in the novel as a study model (Beyond the scope) that approaches it as formal literature, drawing it closer to popular literature within the boundaries of the realism addressed by the author to the young adult category, in a form of advice and guidance encompassing all knowledge categories and

demographics. This has made it fertile ground for a study seeking to explore the concept of popular culture and its presence in official literature, and to achieve the research objectives of understanding the impact of popular literature and the culture of inherited society in our official literature. To achieve these research objectives, the study employed the field of literary sociology and the interpretive semiotic approach to trace linguistic symbols related to narrative events, linking them to popular cultural meanings. The researcher concluded at the end of this study that any creative work in which the people find themselves is considered popular literature, even if its author is known.

Keywords: Popular Culture, Novel, Inherited Customs, Realism, Artistic Elements in the Novel.

*** المقدّمة**

تمتدّ رواسب الثّقافة الشّعبيّة المتوارثة جيلًا بعد جيل إلى عمق أدبنا الرّسميّ، لتغلّف جدار الأحداث السّرديّة الرّوائيّة بقلم كاتب ينهل من ثقافة مجتمعه عادات متوارثة، يتأثّر بها بشكل تلقائيّ، لتكوّن النّواة لرؤيته السّردية القائمة على كيفية صوغ الحدث وروايته والتّعامل معه، استنادًا إلى تجربته مع الموضوع الّذي يقدّمه إلى القارئ بقالب المُكاشفة والتّصريح، ويبلغ به خطّ الوعظ والنّصح والإرشاد إذا توجه به إلى اليافعين والمربّين، بِمُؤَلّف توعويّ كرواية "خارج نطاق التّغطية" الّتي أخذ كاتبها على عاتقه مهمّة تقديم مفهوم تجربة اجتماعيّة واقعيّة يعيشها كلّ مراهق اليوم، مُتأثرًا بثقافته الشّعبيّة في الحكاية الّتي يقدّمها إلى الجيل الجديد بقالب الأدب الرّسميّ. فالواقعيّة الاجتماعيّة الّتي شكّلت الرّؤية الأساس، والهدف المنشود القائم في الرّواية على معالجة اضطراب سلوك المراهق الاجتماعيّ في سبيل إثبات حضوره ودوره الفاعل في أسرته ومجتمعه، نجدها في عاداتنا اليوميّة في مجتمعاتنا العربيّة؛ وهي عادات شعبيّة تشكّل نقطة التّلاقي بين مفهومي الأدب الشّعبيّ والأدب الرّسميّ، الأمر الّذي جعلها خليقة بمثل هذه الدّراسة الّتي تسعى إلى تبيان تأثير الثّقافة الشّعبيّة في الرّواية المصنّفة بأنّها أدب رسميّ مقدّم إلى اليافعين، من خلال الإجابة عن الأسئلة الإشكاليّة الآتيّة:

١- ما المقوّمات الفنّيّة الّتي تجعل من الأدب الرّسميّ المتمثّل بالرّواية الموجّهة إلى اليافعين على مسافة قريبة من حدود الأدب الشّعبيّ؟

٢- وإلى أيّ مدى يبدو تأثير الأدب الشّعبيّ وثقافة المجتمع المتوارثة في أدبنا الرّسمي المقدّم إلى الفئة العمريّة في سن البلوغ؟

٣- وكيف جسّد الكاتب "سمير كتاني" ثقافة المجتمع العربيّ في رواية "خارج نطاق التّغطية"؟

وقد وجدنا فرضيّات الدّراسة تأخذنا إلى ما يلي:-

١- إذا كان الأدب الشّعبي أدبًا مجهول المؤلّف، فإنّنا بإعادة إحياء مفاهيمه ومقوّمات حكاياته الّتي شكّلت المادّة الخام المُتناقلة جيلًا بعد جيل؛ نلامس جداره مع أدب معروف المؤلّف.

٢- التّفاصيل الواقعيّة الّتي تحاكي يومياتنا هي الّتي تجعل من العمل الرّوائي أدبًا يلامس حدود الشّعبيّة في أن يجد كلّ فرد نفسه به، فالمراهق في رواية خارج نطاق التّغطية يجد نفسه

حاضراً بمعاناته، وكذلك الأهل الّذين يتعاملون معه في البيت والمربيّن في المدرسة، فعندما يتحرّر الأدب من قيوده الرّسمية وإن عُرف مؤلّفه غدا أدب كلّ الفئات والشّرائح وبذلك لامس حدود الأدب الشّعبي.

٣- ثقافة المجتمع العربيّ المُحافظ على مفهوم السّلطة الأبويّة هي ثقافة متوارثة، حدّدت الأدوار الاجتماعيّة لكلّ من الرّجال والنّساء حتّى غدت ضمن أعراف أدبنا الرّسميّ والشّعبيّ معًا.

لتتضح أمامنا أهداف هذا البحث في: -

١- الكشف عن المقوّمات الفنّيّة الّتي تجعل من الأدب الرّسميّ المتمثّل بالرواية الموجّهة إلى اليافعين أدبًا يلامس حدود ما اصطلح على تسميته بالأدب الشّعبي، لتحرره من قيود الرّسميّة مع أسلوب كاتب عمد إلى مخاطبة مختلف الفئات بما يفهمونه ويفقهونه، حتّى غدت الشّخصيّات واقعيّة يجد كلّ منا فيها ذاته.

٢- تبيان تأثير الأدب الشّعبي وثقافة المجتمع المتوارثة في أدبنا الرّسمي في تعاطي الأهل مع الأبناء، وفي رفض الأبناء لمفاهيم تربية الأهل وسلوكهم القائم على خصوصيّة "التّمييز" في التّعامل معهم داخل البيت الواحد.

-توضيح المفاهيم الثّقافيّة الخاصّة بالمجتمع العربيّ في رواية "خارج نطاق التّغطية" الّتي تستهدف كلّ الفئات العمريّة بواقعيّة السّرد، ومفهوم التّجربة المُعاشة من عمق يوميّاتنا.

*** المنهج**

حتّى تصل الدّراسة إلى النّتائج المرجوّة، وجب الاستعانة بعلم اجتماع الأدب الّذي يصنّف الأدب على أنّه "وثيقة اجتماعيّة خاضعة للكاتب الّذي ينتمي إلى مجتمع معيّن وزمن معيّن، وإلى المُتلقّي المُستهدف بشكل مباشر أو غير مباشر من هذا الأدب" (إسكاربيت، ١٩٩٩، ص ٤٩) ، لأنّ أصحاب هذا المنهج حصروا مفهوم الأدب في "أن يكتب الكاتب لجمهور حاضر في وجدانه وهو المستهدف"(إسكاربيت، ١٩٩٩، ص١٠٥). ونجد فيما اصطلح على تسميته بالمنهج الاجتماعيّ أو علم اجتماع الأدب وسيلتنا الأقرب إلى مفهوم البحث عن الثّقافة الشّعبية الحاضرة في وجدان الكاتب، والّتي استحضرها لينقلها كتجربة نصح وإرشاد إلى الأجيال اللاحقة. ولتستقيم وجهة البحث في الوصول إلى النّتائج المرجوّة، تم الاستعانة بالسّيميائيّ التّأويليّ الّذي يقوم على فكرة "تفسير النّصوص وإنتاج فهمها، وتمييز المعنى الظاهريّ من المعنى الباطنيّ، انطلاقًا من اعتبار المؤلف مصدراً للمعنى؛ وكذلك القارئ من خلال نظرية "القراءة والتّلقي"(مجموعة من المؤلفين، ٢٠٢٠، ص ٢٤).

أولًا: الرّواية الرّسميّة وتفاصيلها الشّعبيّة

تمكث التّفاصيل الشّعبيّة المتوارثة في كلّ نتاج أدبيّ، لنجد في رؤية أيّ عمل إبداعيّ زاوية ثقافيّة خاصّة بالشّعب الّذي يحتضن هذا المفكر الخلّاق؛ تتسع مع العمل الرّوائيّ إن توجه كاتبه به إلى مفهوم العرض الواقعيّ[١]، القائم على عبرة التّوجيه وتقديم تجربة مفيدة إلى الفرد والمجتمع، وتضيق إن اتخذ مسلك الفنّ من أجل الفنّ[٢] هدفًا منشودًا من العمل، الّذي تصبح مساحة المجتمع فيه ضيقة في محاولة أصحاب هذا المذهب التّحرر من القيود

[١] تبلورت مفاهيم الواقعيّة في الأدب في القرن التّاسع عشر كردّ فعل على الرّومانسيّة الّتي تعتمد على الخيال والعاطفة، ومفهوم الأدب الواقعي يقوم على محاكاة المجتمع وقضاياه وهموم شرائحه المعرفيّة (كريدية، ٢٠١٥، ص ١١٤).

[٢] مفهوم الفنّ من أجل الفنّ هو نظريّة الفكر البرناسيّ الّتي تحاول تجريد الفنّ من الضّوابط، وجعل الأدب والفنّ غاية في ذاتيهما، وتلخّص مهمتهما بالإمتاع، وإثارة المشاعر (كريدية، ٢٠١٥، ص ١٢٤).

الثّقافيّة والاجتماعيّة. وما يهمنا هو العمل الإبداعي النّاطق بثقافة الشّعب والبيئة عن طريق أرضيّة ما يُعرف بالعادات المُكتسبة، الّتي تُرخي بظلالها على قالب الرّواية والجُمل الحكائيّة، لتربطها بمفهوم المقبولية في التّناول، الأمر الّذي دفعنا إلى البحث عن قيم المجتمع الثّقافيّة وعاداته في الأدب المُصنّف باسم أدب الأطفال الموجّه إلى اليافعين، لما فيه من صراع متوارث بين الأجيال، ومحاولة صريحة عند الجيل الصّاعد للإفلات من ضوابط القدماء في التّربية، الأمر الّذي وجدنا فيه ظاهرة شعبيّة تناولتها حكايات الأدب الشّعبيّ ومنها قصّة "الزّير سالم"[1] الّذي اختار المنفى والعزلة بحثًا عن الاستقرار والتّحرر من قيود القبيلة، وسلطة المجتمع نتيجة لتعرضه للظلم والقمع (لا مؤلّف، ٢٠١٣، ص ٦٣)؛ واستحضرها الكاتب "سمير كتاني"[2] إلى عمق روايته مُركزًا على البطل اليافع "رامي" الّذي حاول الفرار من سلطة الأهل نتيجة لكثرة الضغوطات الّتي جُوبه بها في محيطه العائليّ والمدرسيّ، ظنًا منه أنّه في فراره وانعزاله، يحرر نفسه من القيود الخانقة، ويثبت لذاته أنّه القادر على العيش بمفرده؛ ليقدّم الكاتب عبرة المُرشد الموجّه إلى الجيل الجديد. وهذه العبرة تشكّل الركيزة الأساس الّتي قام عليها أدبنا الشّعبي المُتناقل، والّتي تتمثّل بتعليم الأبناء تجارب القدماء، لأنّ الحكاية الشّعبيّة نتاج الثّقافة الجماعيّة، وما اصطلحت عليه من عادات سلوكيّة. وهذا ما جعل من رواية "خارج نطاق التّغطية "خليقة بمثل هذه الدّراسة والبحث عن مفاهيم الهوية العربيّة في حبكة مؤلّفها السّردية، الّتي أدار أحداثها وشخصيّاتها بأسلوب المُكاشفة الاجتماعيّة الّتي تخاطب يومياتنا، وتحاكي ثقافة المراهق الشّعبيّة وتفكيره، ليشحذ همته بعزيمة التّوجيه والنّصح عن طريق تقديم نموذج يشبهه في شخصيّة "رامي".

ففي الحكاية الشّعبية يجد كلّ فرد ذاته، أمّا في الحكاية الرّسمية فمفاهيم مقاربة الذّات الاجتماعيّة تبدو نسبيّة أمام رغبة القارئ؛ بيد أنّ مفهوم الجماعة يحضر بعمق في رواية "خارج نطاق التّغطية"، الأمر الّذي يدفعنا إلى القول إنّ كلّ مراهق يجد نفسه بين سطور السّرد لأنّها من عمق يومياته، وما يُثبت ذلك ما اختبرته الباحثة عن كثب

---

(١) الزّير سالم: هو المهلهل أبو ليلى عدي بن ربيعة من بني جشم من بكر من بني تغلب، وهو من أقدم الشّعراء الّذين وصلت إلينا أخبارهم، ولد في بيت وجاهة ونشأ على التّعرض للنساء، ولذا سميّ بالزير سالم (فاروخ، ١٩٨١، ص ١١٠).

(٢) الدكتور سمير كتّاني: يشغل منصب رئيس قسم اللّغة العربيّة وآدابها في أكاديميّة القاسميّ. حاصل على درجة الدّكتوراة عن أطروحته "مفاهيم العدل في التّراث الإسلاميّ- وتحقيق مخطوط أربعون حديثًا في العدل لابن حجر الهيتميّ". صدرت له مقالات أكاديميّة في مجلّات عالميّة محكّمة، وكذلك كتب تعليميّة ومؤلّفات أدبيّة. من إصداراته الأدبيّة-الرّوائيّة: خارج نطاق التّغطية، النّداء الأخير، نقطة تقاطع، بيت من جليد. وله مجموعة قصصية بعنوان أناس وأجناس، وكتاب خواطر بعنوان: خلاصات خواطر وأفكار. ومن مؤلّفاته التّعليميّة والأكاديميّة: أبواب في النّحو والإعراب، عناقيد الكلام، كلاسيكيّات من صميم الشّعر والنّثر، المنهل في الأدب العربيّ القديم والحديث. كما صدرت له مقالات باللّغتين العربيّة والإنجليزيّة. حصل على جوائز وأوسمة: منها جائزة المحاضر الأكثر إلهامًا في مؤسّسات التّعليم العالي في فلسطين الدّاخل (من الاتّحاد القطريّ للطّلبة الجامعيّين) وجائزة مسابقة القصّة القصيرة – من دار ببلومانيا للنّشر عن العام ٢٠٢٠ ، وجائزة مسابقة كيان للنّشر الإلكترونيّ، والدّار السّودانية الإماراتيّة للنّشر الورقيّ عن العام ٢٠٢٠. (سيرة حياة الدّكتور سمير كتاني متوفرة على موقع موسوعة عارف، وموقع أكاديميّة القاسمي، وقد حصلت عليها الباحثة بالتواصل الشّخصي مع المؤلّف).

في حوارات ونقاشات الطّلاب اليافعين الّذين أثنوا على الرّواية بالقول: "وجدنا فيها معاناتنا"(برقاوي، ٢٠٢٢)، فعندما يجد الفرد نفسه في عمق النّتاج الأدبيّ الرّسميّ، فإنّه يخترق مفهوم الرّسميّة نحو جدار الشّعبيّ حيث استقرار المرء، وهذا من أهم الأسباب الّتي تجعلنا نقبل على الحكاية الشّعبيّة الّتي نجد فيها ذاتنا، والّتي جعلت الأخيرة حاضرة إلى يومنا هذا من عصور ماضيّة كسيرة الهلالي[1]، والزّير سالم.

ثانيًا: بين الثّقافة الشّعبيّة والأحداث التّاريخيّة

تتسلّل الثّقافة الشّعبيّة إلى عمق أدبنا الرّسمي سواء تنبّه الكاتب إلى ذلك أو لم يتنبّه، لأنّه ابن البيئة بالمقام الأوّل، ولا يستطيع أن يتخطّى ما يبعده عن واقعيّة المقبول المتداول في مجتمعه، إذا أراد أن يخاطب اليافعين بمضمون تربويّ توعويّ توجيهي كما فعل الكاتب "سمير كتاني" في رواية خارج نطاق التّغطية، ليغطي تفاصيل الواقع اليوميّة لجيل يسعى إلى التّحرر من الضّوابط المفروضة عليه نتيجة محاولة إثبات حضوره للآخر. الأمر الّذي نجد فيه ثقافة متوارثة في حكايات أدبنا الشّعبيّ؛ إذ لا يستطيع المرء العيش بمعزل عن مفهوم الموروث الشّعبيّ وخصوصًا إذا كان الكاتب يتوجه إلى فئة اليافعين مُستحضرًا معاناتهم الّتي تشكّل صراعًا يوميًّا، يتلخص بمفهوم "الغيرة السّلبيّة" في كلّ بيت فيه أخوان أو أكثر، وجذور هذه الغيرة بدأت منذ فجر التّاريخ مع أولاد آدم عليه السّلام "قايين وهابيل":﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة المائدة، الآية ٢٧). واستُتبعت مع قصّة النّبي يوسف عليه السّلام:﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة يوسف، الآية ٥)؛ ولها نماذج معاصرة كثيرة، ومنها ما سنأتي عليه في قصة الأخوين "رامي" و"مالك" في "خارج نطاق التّغطية".

ومما لا ريب فيه أننا نعيش في واقع يتخبّط بأجيالنا في صراع قديم مُتجدّد عنوانه الأبرز نبذ كلّ جيل لسلطة الجيل السّابق ومفاهيمه المعرفيّة، وقواعده الاجتماعيّة والسّلوكيّة في التّعاطي مع الآخر، وفي تربية الأبناء؛ الأمر الّذي يدفع فئة كبيرة مِن مَن يعانون الكبت الاجتماعيّ إلى التّمرد. ومفهوم التّمرد على سلطة المجتمع له جذور شعبيّة في قصصنا المُتناقلة مع "الزّير سالم" الّذي وجد في محاولة الفرار انتقامًا من القبيلة في سلوك مسلك لا ترتضيه، ومع "عنترة"[2] الّذي فرّ نحو الحرب والقتال لانتزاع مفهوم المكانة الّتي حُرم منها نتيجة لرفض قومه للون بشرته، وهذه المعاناة تشكّل جزءًا من يومياتنا، وتتفاوت تحت إطار قبول الآخر لنا، ولكنّ ذروتها تتفاقم في سن البلوغ الّذي يجد فيه المراهق الشّابّ نفسه في تخبط وضياع بين سلطة الأهل وسلوكهم، وبين رغباته وميوله الأمر الّذي يدفعه إلى التّمرد والعزلة، وسلوك درب إثبات الذّات لكسر الهيمنة، وهذا ما طرحته رواية "خارج نطاق التّغطية".

---

[1] أبو زيد الهلالي: "وصفته الحكاية الشّعبيّة بالبطل الخارق، ومن أبرز ملامح أبي زيد قدراته على التّنكر والتّخلص من المآزق، فهو يصبغ حاله سبع صبغات، ويُتقن الحديث بسبع لغات" (لا مؤلّف، د.ت.، ص ١١٣).

[2] حفلت بطون الكتب بأخبار متفرقة عن الشاعر عنترة منها ما نُسب إلى الأدب الشعبي عن مغامراته وحروبه، ومنها ما هو أدب رسمي جمعه من حقق ديوانه من أمثال محمد سعيد مولوي، ومعاناة هذا الشّاعر تلخصت في أنّه من أمّ حبشيّة ولهذا عانى من أنّه لم يقبل بين أسياد قومه وكان منبوذًا في قبيلته رغم فروسيته وشجاعته (العبسي، ١٩٦٤، ص ٢١، ٢٢).

ثالثًا: رمزيّة العنوان بين الثّقافة الشّعبيّة والرّؤية[1] السّردية: "خارج نطاق التّغطية"

يحمل الخارج مفاهيم الهروب والمدى الواسع، ومفاهيم محاولة الفرار القائمة على البحث عن الرّاحة، وهي الّتي ارتبطت بمدلولات الحكاية الشّعبية مع "أبي زيد الهلالي" و"أبي ليلى المهلهل" و"عنترة بن شداد"، لأنّ نزوعهم الدّائم نحو الخارج والصّحراء الواسعة، جعلهم يقفون على نطاق تغطية إشباع حاجات الذّات، أمّا في الرّواية مدوّنة الدّراسة؛ فالخارج لم يبتعد عن هذا المفهوم بل حمل مدلولات الخروج من المنزل والهروب من سلطة الأبوين، نتيجة لشعور "رامي" بإهمال متعمد من أهله تجاهه دفعه إلى رفض البقاء في المنزل: "في الحقيقة لست أريد من أبي أن يشتري لي الأشياء الّتي أحبّها، بل أريد منه أن يشتملني بعطفه كما يشتمل أخي مالك"(كتاني، ٢٠٢٢، ص ١٦) ؛ فكان الخارج هو المجهول الّذي ينتظره، والّذي يرجو فيه أمانًا واستقرارًا: "كان لا بدّ من البحث عن مخرج من هذا الوضع البائس الّذي يحيط بي، فولدت الفكرة في رأسي، وحان وقت تنفيذها"(كتاني، ٢٠٢٢، ص٥٦). أمّا كلمة النّطاق في الرّواية فنجدها توافق في مدلولاها فكرة الهروب عن المحيط، فكلّ مكان معروف عند الجماعة هو نطاقها، وهذا النّطاق فرّ منه أبطال الحكاية الشّعبيّة، وهو نطاق القبيلة وسلطتها، وفرّ منه بطل خارج نطاق التّغطية "رامي"، ليكون النّطاق عنده نطاق البيت والأهل والمدرسة والجوار ومحيط السّكن. ولذا قصد بفراره منطقة أخرى مجهولة لا يعرفها سُكان النّطاق الأول، ولن تكون ضمن النّطاق الّذي سيبحثون فيه عنه، لأنّ المتوقّع بعد اختفاء أي شخص البحث عنه في نطاق المحيط الضّيق: "ووصلنا المحطّة المطلوبة الكائنة في قرية "عارة"، وفهمت من "زياد" أنّ خاله يسكن هذه القرية، وأنّه يملك فيها شقّة صغيرة يتردّد عليها مع زوجته مرّة كلّ عامين أو ثلاثة، وذلك عندما يعود من الخارج لقضاء بعض إجازاته السّنوية"(كتاني، ٢٠٢٢، ص١٣١).

أمّا عن مفهوم التّغطية فهي تغطية تجاوزت بمدلولها الضّيق فكرة إقفال الهاتف المحمول "عطلت وضعية الطيران في الجهاز وسرعان ما رجعت شبكة الاتصال إلى العمل، وصرت الآن داخل نطاق التّغطية"(كتاني، ٢٠٢٢، ص٥٦)، لتعكس مفهومًا أبعد من مفهوم عدم القدرة على الاتصال الهاتفي، وليكون في عمق هذه التّغطية السّردية، تغطية واقع مرير يعيشه الجيل الصّاعد في عدم حصوله على العاطفة الأبوية الكافية في مراحل نموه، وتعرضه لسلطة النّقد اللاذع والمقارنات واللّوم، وهذا لبنة أدبنا الشّعبيّ الّذي أدى بكلّ من "عنترة" و"الزّير" إلى بطولة تثبت إلى المجتمع مكانتهما، وتعوض لهما عن مفاهيم التّمييز الّذي جُوبِها به.

رابعًا: مقومات العمل الفنيّ بين الأدب الرّسمي والأدب الشّعبي

الغاية من دراسة مقومات العمل الفنيّ، ليس القول بأنّ الرّواية الّتي اخترناها كمدوّنة لدراستنا هي أدب شعبيّ، بل القول بأنّ مظاهر الثّقافة الشّعبيّة اختلفت في عصرنا الرّاهن، الّذي أصبحت الحاجة فيه ملحّة للعودة إلى الأصالة نتيجة للانهيار القيمي، الّذي ولّد الحاجة إلى الأدب الشّعبي (مرسي، ٢٠٠٢، ص٧)، الأمر الّذي جعل من بعض النّماذج ترتقي لأن تكون أدبًا يهم مختلف الشّرائح المعرفيّة

[1] الرّؤية هي الكيفيّة الّتي يتم فيها إدراك القصّة من طرف السّارد (تودورف، ١٩٩٢، ص ١٦).

في المجتمع، لما فيها من نصح وإرشاد قيميّ نحتاجه في عصر المعلوماتيّة الّتي سيطرت على عقولنا، وهذا ما بينته رواية "خارج نطاق التّغطية":

"والديّ يقولان إنّي مدمن على ألعاب الفيديو وعلى التّطبيقات التّرفيهيّة الضّارة، على حدّ زعمهما، الّتي تُشغّل من خلال الأجهزة اللّوحيّة" (كتاني، ٢٠٢٢، ص ١٠)، الأمر الّذي جعلها تلتقي مع مفهوم الأدب الشّعبي في بعض وجوهه، وتبتعد عنه في وجوه أخرى، وأبرزها المغامرة الخياليّة المبالغ في تفاصيلها، والأحداث الطويلة، والحقبات الزّمنية الشّاسعة الّتي تغطيها الحكاية الشّعبيّة؛ وغالبًا ما نفرق بين الأدب الرّسميّ والأدب الشّعبيّ بالقول: "إنّ الأدب الشّعبي هو أدب مجهول المؤلف، وجد فيه الشّعب تعبيرًا صادقًا عن حاله، فتناقله ليكون الدّرس والعبرة لكلّ جيل"(حرب، ١٩٩٩، ص ١١)، وهذه العبرة هي الّتي تقرب الرّواية المخصّصة لفئة اليافعين من الأدب الشّعبيّ حتّى ولو عُرف مؤلّفها، لأنّ التّجربة الّتي تقدّمها هي تجربة أجيال مع المعاناة المستمرة؛ هذا إذا أحسن الكاتب توظيف أحداثه السّرديّة لخدمة الغرض والمضمون القائم على جعل الحكاية رفيقًا مُرشدًا لليافعين في هذه المرحلة، الّتي تقارب يوميّاتهم وتفاصيل حياتهم، لأنّهم غالبًا ما يميلون إلى إخفاء شعورهم عن الآخر والعزلة، فيجد المراهق في "خارج نطاق التّغطية" ما يعينه على تغطية شعوره، لأنّ البطل يشاركه تفاصيله وخيباته، ويشاطره همومه، وهذا الحاجز الّذي كسر به الكاتب مفهوم رسميّة الأدب نحو العمق الشّعبي، القائم على فكرة أنّ الأدب الشّعبي هو "أدب الحياة الّذي لازم الحياة منذ النّشأة الأولى، ولا زال يسايرها خطوة خطوة، يهدي خطاها، ويرفه عنها، ويذكّرها حين تنسى بما قال الأوّلون"(حيروم، د.ت.، ص ٦).

وهذا تمامًا ما وجدناه في مقوّمات العمل الفنّيّ في رواية "خارج نطاق التّغطية" الّتي لم يجنح الكاتب خارج نطاق الواقعيّة بل جعلها أرضيّة خصبة ينهل من عمقها تجارب حاضرة في ذاكرته، ومن صلب يوميّاته، ليقدّم الإرشاد والتّوعية إلى الأهل قبل الأبناء، للتنبه إلى عاقبة مفهوم النّقد والسّلطة الخانقة؛ الممارسة تحت إطار القانون العائلي مع شخصيّة "رامي" الصّبي اليافع الّذي وجد في خروجه من البيت وانعزاله عن محيطه حلًّا لمشاكل أسريّة هزّت مفاهيم كيانه، حتّى غدا يرفض نفسه وسط العائلة، لأنّه المُهان بين أفرادها: "لقد أصبحت شديد الحساسيّة تجاه الانتقادات الّتي لا يكفّ والديّ عن توجيهها إليّ، سواء ما يتعلّق منها بأدائيّ في المدرسة أو ما يتعلّق بسلوكي في البيت، بل بطعامي وشرابي وأوقات استرخائي"(كتاني، ٢٠٢٢، ص ١٠). وهذا ما جعلنا نعقد المقارنة بين حاجز الواقعيّة هذه، وبين أدبنا الشّعبي وحكاياتنا الشّعبيّة، فالزّير تعرّض لنقد كهذا جعله يصرّح به في "ملحمة الحبّ والرّحيل" بالقول: " وددت لو ولدت في بلاد غير بلاد العرب.. الصّحراء والقبيلة.. أنا أكره القيود.. سأشرب هذا هو الميدان الوحيد الّذي أسابق فيه النّاس جميعًا"(وجدي، ١٩٦٨، ح١١).

ومفهوم البناء الفنيّ للحكاية الشّعبية يركز على فكرة المغامرة الّتي يقودها البطل. وهذه المغامرة في أدبنا الشّعبي "رسخت الكثير من القيم المعرفيّة، بالإضافة إلى غاية السّمر الفنّيّ"(يونس، ١٩٦٨، ص٥٧)، ونجد أن أسباب المغامرة الشّعبية هي الهزيمة الاجتماعيّة. وهذا ما صرّح به "رامي" في القصّة: "ولهذا أنا لا أحتمل أن أقع في مثل هذه المواقف مرّة أخرى، لست مُستعدًّا أن أبقى مثار سخريّة

المعلمين والطّلبة، ولا مثار شفقتهم"(كتاني، ٢٠٢٢، ص٦٧).

ما يعني أنّ الشّخصيّة الشّعبيّة غالبًا ما تكون شخصيّة مقموعة من وسطها، ولذا بطولتها قائمة على مفهوم انتزاع الحق الاجتماعيّ بالتّمرد والخروج عن المألوف، ليبقى الفرق بين القصّة الشّعبيّة "للزير" على سبيل المثال، ولبطل "كتاني" "رامي" في أنّ الكاتب هدف إلى المعالجة والتّربية والفائدة العلميّة والمعرفيّة لفئة المراهقين، لا إلى تقديم ملحمة بطوليّة تبدأ بولادة البطل، وتنتهي بموته، فكتاني قدّم إلى كلّ طفل عربيّ معاناته في قالب الحكاية لتكون صديقه الّذي يفهمه دون أن يُعبر عنما يجابه به.

خامسًا: العمق الثّقافي الشّعبي في الرّواية

مما لا شكّ فيه أنّ محاولة الافلات من ضوابط المجتمع وقيمه، هي محاولة تنطوي عليها الثّقافة الشّعبيّة، وتظهر بعمق في أدبنا الرّسمي مع جيل جديد يجد في كثرة الكبت محاولة فرار نحو واقع أفضل، يحاكي فيه مفاهيم بطولة فُطر عليها تحت لواء الأنا، ولكنّه ما يلبث أن يجد أنّ حاجته إلى الجماعة هي فطرته الأساس، بعد مغامرة قادته إلى اليقين بأنّ الوحدة مخيفة، ولذا احتاج الانسان إلى الجماعة ليعيش باستقرار وأمان: "لم أدرِ أين أنا.. ثم تذكّرت.. أنا موجود في شقّة خال "زياد" لوحدي نائمًا على الأريكة.. لا أشعر بالارتياح لهذه الحقيقة.. أصابني بعض التّوتّر بعد أن أدركت جيدًا أين أنا وماذا فعلت اليوم"(كتاني، ٢٠٢٢، ص ١٣٠).

وقد حاكى كاتب هذه الرّواية مفهوم الصّداقة الشّعبيّة الّتي وجدناها عنده في شخصيّة "فريد": ها نحن في صبيحة يوم الخميس اليوم الموعود. لقد تلقيت قبل ثلاثة أيّام اتّصالًا هاتفيًّا من زياد يعرض عليّ المساعدة الّتي طالما انتظرتها، فقد أخبرني بأنّ عليّ الاستعداد صبيحة هذا اليوم للتوجّه معه اليوم إلى المكان المتفق عليه"(كتاني، ٢٠٢٢، ص٦٧)؛ الّتي توحي لنا بشخصيّة "همام" صديق "الزّير" الّذي اختار معه العزلة الاجتماعيّة، فرافقه إلى منفاه في بئر السّبع بحسب القصّة الشّعبيّة(لا مؤلف، د.ت، ص٦٣).

وقد صاغ الكاتب روايته بلغة تميّزت بالسلاسة والمتانة، وقربها من روح العصر ومفاهيمه الاصطلاحيّة المتداولة مع الأجيال، بقالب حكائيّ فيه الكثير من الحكم المرتبطة بالشّيوخ والكهول بحسب منطقنا الشّعبي: "يمتلك جدّي أسلوبًا رائعًا في احتوائي وتفهّم حاجاتي. وصار يهوّن عليّ الأمر ويدعونني إلى انتهاج الحكمة والنّظر في عواقب الأمور"(كتاني، ٢٠٢٢، ص ١٦١). وهذه الحكم تلاقي الحكايّة الشّعبية لناحية المضمون لا اللّغة، لأن لغة الحكاية الشّعبيّة "طغت عليها الأساليب المحفوظة والمعلبة الّتي صادفت هوى رواة السّيرة الشّعبيّة النّثرية"(نجار، ٢٠٠٦، ص ١٠٦). أمّا عن رواية خارج نطاق التّغطيّة فإنّ من أهداف كاتبها الأبرز تمكين الجيل الجديد من النّطق بلغة فصيحة سليمة، لأنّ هذه الرّواية تُقدّم في المدارس إلى اليافعيّن في حصص المطالعة (برقاوي، ٢٠٢٢). وهذا لم يمنع الكاتب من الدّخول إلى جدار الثّقافة المتوارثة، ليعالج مفاهيم الخوف الّتي جسّدها بقالب الوعظ، وكأنّه راح ينهي كلّ مراهق عن فكرة الهروب من المنزل: "استيقظت بعد حوالي ساعتين فزعًا.. فقد رأيت في منامي حلمًا مخيفًا.. رأيت أنّي أهوى من قمة جبل عالٍ أتسلقه، فسقطت في الهاوية.. كانت ضربات قلبي تكاد تفجر صدري""(كتاني، ٢٠٢٢، ص ١٣٠).

وقد عالج أيضًا مفهوم الخرافة الكامنة في عقولنا الباطنيّة، مُطلًا على معتقداتنا الشّعبيّة المتوارثة بأسلوب يحمل

فيه عصا التّرهيب، والنّهي عن مفاهيم التّمرد: "تولد عندي إحساس بأنّ في البيت أشباحًا، وهي الّتي تصدر هذه الأصوات الغريبة.. فقد شاهدت في السابق فيلمًا عن أشباح تسكن البيوت المهجورة الّتي يندر أن يدخلها البشر.. وقد أخبرني زياد أنّ أمّه تحضر إلى الشّقة كل ثلاثة أشهر.. أليست هذه الشّقة مهجورة إذن؟!"(كتاني، ٢٠٢٢، ص ١٧٣، ١٧٤).

ولم تخلُ الرّواية من مفهوم الثّأر، وهو المفهوم الأساس في أدبنا الشّعبي؛ فلم ينسَ "كتاني" أن في عمق كلّ شخصيّة ثأر ينتهي بمفهوم الانتقام، الأمر الّذي يجعل الثّقافة الشّعبيّة للحكايات القائمة على فكرة أخذ الثأر قائمة عنده، وإن بأسلوب حديث وجديد، رغب من خلاله في تقديم صورة كاملة عن تفكير الشّخصيّة المرهون بما تعلمه، لا بما تنطوي عليه الحقيقة: "وفي المحطة ركبت الحافلة الّتي تؤدي إلى عارة جلست على المقعد مزهوًا بنفسي. شعرت بالراحة فقد ثأرت لكرامتي"(كتاني، ٢٠٢٢، ص١٦٧). وبذلك نجد أنّ هذه الرّواية حاكت تفاصيل يومياتنا الشّعبيّة بدءًا من مفاهيم الأدوار الاجتماعيّة بين المرأة والرّجل، المرتكزة على فكرة أنّ المرأة في عاداتنا العربيّة هي ربة المنزل: "فقد اعتادت أميّ على أن تكون السّباقة إلى النّهوض من فراشها، لتجهّز لي ولأخي وجباتنا المدرسيّة، ثم يتبعها أبي ينهض مُتثاقلًا، فيتناول فطوره بعد أن ينهر كلّ من لا زال يقبع منّا في فراشه""(كتاني، ٢٠٢٢، ص ٤)؛ مرورًا برحلة البحث عن العاطفة والاهتمام والاستقرار لدى المراهق: "صرت أخاف من المستقبل إلّا في أوقات انشغالي""(كتاني، ٢٠٢٢، ص ١٣) ؛ وصولًا إلى فكرة العمل الأساس القائمة على أنّ المحبة سلوك قد لا يجيد الأهل تبيانه ولكنّه الأساس في تربية الأبناء، وإن لم يفقهوا ذلك: "وأكملت طريقي نحو البيت وأنا أشعر أنّي أملك زمام أموري جيّدًا؛ أخرجت جهاز الجالكسي من حقيبتي ونظرت في شاشته جذلًا أسعدني أنّ التّغطية الشّبكيّة واسعة، بل إنّها أخذت تزداد اتساعًا وقوّة كلّما اقتربت من موقع البيت"(كتاني، ٢٠٢٢، ص ٢٤٥).

الأمر الّذي يدفعنا إلى القول: إنّ الرّواية حاكت الجيل الجديد من عمق ثقافة شعبيّة ماضيّة فيها الكثير من العبر الّتي يثبتها الزّمن بمروره، وهذا ما تناوله كاتبها عن وعي بأهميّة الحاجة إلى قالب حكائيّ فيه الكثير من الوعظ والعبر والدروس لجيل يحتاجها، وخصوصًا بعد انغماسه في عصر المعلوماتيّة الّتي بتنا فيها نبحث عن أصالتنا العربيّة إذا صحّ التّعبير.

*** الخاتمة**

في نهاية هذا البحث الّذي شرّع باب الدّراسة العلميّة على مفهوم الحدود الفاصلة بين الأدب الرّسميّ والأدب الشّعبي من خلال دراسة المقومات الفنّيّة للعمل الإبداعيّ الّتي تجعل منه عملًا يهمّ مختلف الشّرائح المعرفيّة؛ نتأمّل الجديد العلميّ الّذي طرق البحث بابه، والّذي يتمثّل في معالجة مفهوم الثّقافة الشّعبيّة في الرّؤية السّردية الرّوائية لرواية "خارج نطاق التّغطية" الّتي يتجه بها كاتبها إلى المراهقين، لتترتب على الدّراسة النّتائج الآتية:

في رواية خارج نطاق التّغطية إحياء لمفاهيم الحكاية الشّعبية الموروثة الّتي شكلت المادة الخام المُتناقلة بين الأجيال عن صراع إثبات الهوية الاجتماعيّة والذّات، والتّحرر من قيود التّربية وضوابطها؛ الّتي توجّه بها كاتبها إلى فئة اليافعين مُستحضرًا معاناتهم مع مفهوم "الغيرة السّلبيّة" الّتي حفل بها التّاريخ من أيام سيدنا آدم؛ ليحاكي تفاصيل يومياتنا الّتي تجعل من العمل الرّوائي أدبًا يلامس حدود الشّعبيّة في قالب إبداعيّ عُرف مؤلّفه، ويجد فيه كلّ

فرد جزءًا من معاناته؛ بدءًا من المراهقين، مرورًا بالأهل، ووصولًا إلى المربين في المدارس. ليبدو "رامي" في مغامرته "كالزّير سالم" مع بعض الاختلافات الاجتماعيّة.

فمحاولة الفرار وبناء عالم جديد تعيش فيه النّفس متحررة من قيود الجماعة مفهوم راود أدبنا الشّعبي، وطرق عمق أدبنا الرّسمي في طرح "سمير كتاني" عن طفل أراد أن يعيش "خارج نطاق التّغطية"، ليكون عنوانه "خارج نطاق التّغطية" وداخل عمق الحقيقة، وجدار الثّقافة المتوارثة– الشّعبيّة الّتي نعيشها اليوم.

وبعد؛ أتمنى أن يكون هذا البحث قد قدّم جديدًا علميًّا في ميدانه، يفتح نافذة تناول الثّقافة الشّعبيّة بعين التّجديد من عمق أدبنا الرّسميّ؛ ومن حيث انتهيت آمل أن يكمل الباحثون في سيرهم المعرفي على دروب الثّقافة الشّعبيّة في أدبنا العربيّ لأنّها تختزل تاريخ أمتنا، وهي الأصدق في التّعبير عن ذاتنا.

*** المراجع**

كتاني، سمير، خارج نطاق التّغطية، مكتبة كتاني، القدس، ط٤، ٢٠٢٢.

حرب، طلال، بنية السّيرة الشّعبيّة وخطابها الملحميّ في عصر المماليك، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر، بيروت، ١٩٩٩.

الصّبّاغ، مرسي، دراسات في الثّقافة الشّعبيّة، دار الوفاء، الإسكندرية، د.ط.، ٢٠٠٠.

العبسي، عنترة، ديوان عنترة، تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، القاهرة، د.ط.، ١٩٦٤.

فاروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨١.

القمراوي، حيروم، أدب الشّعب، مطابع جريدة المصري، الإسكندرية، د.ط.، د.ت.

كريدية، سهام، الأدب أنواعه ومذاهب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠١٥.

لا مؤلّف، الزّير سالم أبو ليلى المهلهل الكبير، منشورات الجمل، بغداد، ط١، ٢٠١٣.

لا مؤلّف، تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ت.، د.ط.

مجموعة من المؤلفين، دليل مناهج البحث العلميّ، تنسيق مهى جرجور، تحرير جوزف لبّس، الجامعة اللبنانيّة، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بيروت، ط١، ٢٠٢٠.

نجار، محمد، الأدب الملحمي، الهيئة العامّة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦.

يونس، عبد الحميد الحكاية الشّعبية، المؤسّسة العامّة للتأليف والنّشر، القاهرة، ط١، ١٩٦٨.

إسكاربيت، روبير، سوسيولوجيا الأدب، ترجمة آمال أنطوان عرموني، عويدات للنّشر والطّباعة، بيروت، ط٣، ١٩٩٩.

تودورف، تزفتان، مقولات السّرد الأدبي، ترجمة الحسين سحبان وفؤاد صف، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط١، ١٩٩٢.

برقاوي، لانا، فنّ التّعامل مع المراهقين "خارج نطاق التّغطية"، برنامج ضيفنا كتاب، حوار مع الدّكتور سمير كتاني، نُشر بتاريخ ٢١، ٢، ٢٠٢٢: [https://www.youtube.com/wa

tch?v=1YNGLCDAjMQ&list=
[PLdlKj0isD

مؤسّسة الخليج للأعمال الفنيّة، ملحمة الحبّ والرّحيل، إخراج: وفيق وجدي، ١٩٦٨، الحلقة ١١:
[https://www.youtube.com/wa
[tch?v= gpzl8HNU6Rg